

كلام الله تعالى بين الإسلام والمسيحية

يبتدئ نص الإنجيل الشريف حسب رواية يوحنا بهذه الكلمات: "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله، والكلمة هو الله. كان في البدء لدى الله. به كان كل شيء، وبدونه ما كان شيء مما كان. فيه كانت الحياة. والحياة نور الناس. والنور يشرق في الظلمات، ولم تدركه الظلمات."

لقد أنزل الإنجيل الشريف باللغة اليونانية القديمة. فاللفظ اليوناني "لوغوس" الذي تتم عادة ترجمته إلى العربية "الكلمة" يمكن أيضاً ترجمته بـ "الكلام"، حيث نفهم من الآيات (يوحنا 1:1-4)، في الإنجيل الشريف حسب يوحنا أن كلام الله ليس بالشيء الذي كان قد خلقه أو أحدثه في الزمان، بل إن كلام الله صفة أزلية قائمة بالله. لذلك فكل الأشياء التي خلقها إنما خلقها بواسطة كلامه، لأنه تعالى يقول للشيء "كن" فيكون.

وهذه هي الحقيقة التي يؤكد بها الإسلام بخصوص كلام الله. غير أن المعتزلة نفوا ذلك، وزعموا أن القرآن الكريم مخلوق. كما نفوا أن يكون كلام الله حقيقة أزلية قائمة بذات الله. وزادوا فنفاً أيضاً سائر الصفات الأزلية التي تقوم بالله مثل حياته وقدرته. وإذا كان هؤلاء قالوا بخلق كلام الله، فبعض منهم زعموا أن كلام الله لا معنى له ولا حقيقة، بل إن الله متكلم بذاته لا بكلام قائم به.

لكن مذهب المعتزلة هذا يتعارض مع القرآن والسنة، مما جعل ابن حنبل وغالبية المسلمين يجمعون على بطلانه. فقد أثبت ابن حنبل قدم كلام الله وحقيقة صفاته، وهو ما أدى إلى سجنه بأمر من الخليفين المأمون والمعتصم. وقد لخص أبو الحسن الأشعري (325هـ/935م) بوضوح تام العقيدة الإسلامية الصحيحة بخصوص هذه المسألة، وبين أساسها في القرآن الكريم، وذلك في كتابه الإبانة عن أصول الديانة حيث يقول:

"نقول إن كلام الله غير مخلوق، وإنه لم يخلق شيئاً إلا قال له "كن"!"

الدليل على ذلك قوله عز وجل: "ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره" (سورة الروم 25) وأمر الله هو كلامه وقوله... وقال عز وجل: "ألا له الخلق والأمر" (سورة الأعراف 54) فخلق جميع ما خلق داخل فيه... فلما قال "ألا له الخلق" كان هذا في جميع الخلق، ولما قال "والأمر" ذكر أمراً غير جميع الخلق، فدل ما وصفنا على أن أمر الله غير مخلوق. (2) "أمر الله كلامه، وهذا يوجب أن كلام الله غير مخلوق." (3)

دليل آخر: مما يدل من كتاب الله على أن كلامه غير مخلوق قوله عز وجل: "إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون" (سورة النحل 40) فلو كان القرآن مخلوقاً لوجب أن يكون مقولاً له "كن" فيكون، ولو كان الله عز وجل قائلاً للقول "كن"، كان للقول قول... [وكان] كل قول واقعاً بقول لا إلى غاية، وذلك محال. (4)

ويقول الأشعري في السياق نفسه: "إن كلام الله تعالى صفة له قديمة لم يزل قائماً بذاته." (5)

وهذا يتفق تماماً مع نص الإنجيل الشريف كما ورد في يوحنا (1:1-3): "في البدء كان الكلمة، والكلمة كان لدى الله، والكلمة هو الله. كان في البدء لدى الله. به كان كل شيء، وبغيره ما كان شيء ممّا كان. فيه كانت الحياة. والحياة نور الناس".

إن كل هذا يدل على أن كلام الله غير مخلوق بل هو حقيقة قديمة قائمة أزلياً بالله. أي بمعنى ما هو "لدى الله" وبمعنى آخر "هو الله". فكل ما خلقه الله إنما خلقه بواسطة كلامه، وهي حقيقة يجتمع حولها المسلمون والمسيحيون.

فما هو يا ترى كلام الله؟

إنه كشف الله وإعلانه عن ذاته لبني البشر، لأنه تعالى فعل ذلك بواسطة كلامه. ضمن السياق عينه يضيف الإنجيل الشريف في يوحنا (1:14؛ 1:17) أن: "الكلمة صار بشراً، فسكن بيننا، فرأينا مجده، مجداً من لدن الأب لابن وحيد ملؤه النعمة والحق... لأن الشريعة أعطيت عن يد موسى، وأما النعمة والحق فقد أتيا عن يد يسوع "عيسى المسيح". فالإنجيل الشريف يؤكد هنا أن كلام الله تجلى لنا بشراً، أي أنه عز وجل أعلن نفسه للبشرية في هيئة بشر- وقد تم ذلك في شخص السيد المسيح، له المجد. وعبارة "صار بشراً" لا تعني أن كلام الله أصابه تغيير، أو أنه كف عن أن يكون شيئاً وتحول إلى شيء آخر مختلف، فالعبارة اليونانية الأصلية لا تتضمن هذا المعنى، بل تعني أن كلام الله الذي لا يمسه تبديل تجلى في هيئة بشرية.

ربما يمكن القول أن تلك الآية تتضمن تعدداً دلاليّاً على المستوى المعجمي، حيث أن كلمة "إبسر" في اللغة الآرامية السريانية التي كانت محكية على أيام السيد المسيح، تعني "صار بشراً" كما يمكن أن تعني "بُشّر به". لذلك نفهم بشكل إجمالي من الآية أن كلام الله الذي بُشّر به من قبل في التوراة الشريفة قد تجلى الآن بشراً في شخص السيد المسيح له المجد.

نلمس أيضاً صدى هذا التعدد الدلالي على مستوى المعجم في سورة آل عمران الآية 45: "قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين". كما ان سورة النساء الآية 171 تشير إلى السيد المسيح على أنه "كلمته" (أي كلمة الله) ألقاها إلى مريم وروح منه".

هكذا نرى أن كلاً من القرآن الكريم والإنجيل الشريف يفيد بأن كلام الله أزلي غير مخلوق قائم بذات الله. كلا الكتابين يفيدان أن جميع الأشياء خلقت بواسطة كلام الله، كما يفيدان أن السيد المسيح هو كلمة الله الذي تجلى بالولادة من مريم العذراء رضي الله عنها، ليهب الرجاء والتوبة للعالم.

1) أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة،

(بيروت: دار الكتب العلمية، 1998، ص. 16.

2) المصدر نفسه، ص. 31.

3) المصدر نفسه، ص. 31.

4) المصدر نفسه، ص. 31.

5) أبو بكر محمد بن الحسن، مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري،

تحقيق دانيال غيماريت (بيروت: دار المشرق، 1987، ص. 59.